# الأبعاد الأنثربولوجية للرموز الموظفة في النص الشعري الشعبي الجزائري " قصيدة حيزية لابن قيطون أنموذجا "

*Anthropological dimensions of symbols employed in Algerian folk poetry: Ibn Qaytun's Haiziyya poem as a model*

الدكتورة سهام سلطاني
الأستاذ الدكتور عبد اللطيف حنيّ

**قسم اللغة والأدب العربي-جامعة الشاذلي بن جديد الطارف (الجزائر)**
**مخبر التراث والدراسات اللسانية، جامعة الطارف**
*s.soltani@univ-eltarf.dz*
*henni-abdellatif@univ-eltarf.dz*

تاريخ الإيداع: 2025/10/02 تاريخ القبول: 2026/01/28 تاريخ النشر: 2026/03/15

**ملخص:**

تتناول هذه الورقة البحثية الحديث عن الأبعاد الأنثربولوجية للرموز الموظفة في الشعر الشعبي الجزائري، المزدحم بالرموز الدالة على المجتمع الذي أنتجه والبيئة التي احتضنته، باتخاذ قصيدة حيزية للشاعر ابن قيطون أنموذجا، حيث اجتهدنا في الكشف عن الأبعاد الأنثربولوجية للرموز الإيحائية التي وظفها الشاعر لرسم تجربته الفنية ونقلها بكفاءة عالية للمتلقي.

وتتدثر القصيدة بصدق العواطف وعمق التأثير الذي اشتغل عليه الشاعر في رثائه لأسطورته حيزية موظفا رموزا مختلفة أسهمت في استمالة المتلقي والتأثير فيه بطريقة لا شعورية، وانطلاقا من هذا يمكن طرح الإشكالية التالية: ما هي الأبعاد الأنثربولوجية التي أفرزها النص الشعري الشعبي موضوع الدراسة؟

الكلمات المفتاحية: الأنثربولوجي؛ الرموز؛ الشعر الشعبي؛ ابن قيطون؛ حيزية.

***Abstract:***

This research paper discusses the anthropological dimensions of symbols used in Algerian folk poetry, which is replete with symbols that refer to the society that produced it and the environment that embraced it, using a poem by the poet "Ibn Qaytun's" as an example. We strive to reveal the anthropological dimensions of the evocative symbols used by the poet to depict his artistic experience and convey it effectively to the reader.

The poem is imbued with the sincerity of emotions and the depth of influence that the poet worked on in his elegy to his spatial legend, employing various symbols that contributed to winning over the recipient and influencing them in a subconscious way. Based on this, the following question can be posed: What are the anthropological dimensions produced by the popular poetic text under study?

***key words****:* anthropology; symbols; folk poetry; Ibn Qaytun's; Haiziyya.

**تمهيد:**

يعتبر الشعر الشعبي شكل من أشكال التعبير في الأدب الشعبي، فهو شعر العامة المنظوم بلغتهم الخاصة والمتناقل بينهم مشافهة، فهو وسيلة إعلام الأمة تعكس واقعها على حقيقته صادر عن نفس صادقة وعاطفة جياشة، من نظم شعراء يعيشون آمال وآلام شعوبهم، ولما كان الشعر الشعبي نابعا من وجدان شعبي ومعبرا عن ذاته ملازما له في يومياته أصبح بذلك لسان حاله، ومرآته العاكسة لنفسه ومعلما من معالم ثقافته.

وتعتبر قصيدة حيزية للشاعر ابن قيطون[1] من أشهر قصائد الرثاء في الشعر الشعبي الجزائري، التي تضاربت الروايات حول ابن قيطون وقصة حيزية (1855-1878م) بنت أحمد بن الباي من عرش الذواودة أو الذواودية، أكان معاصرا لها أم رويت له قصتها ومأساتها؟في حين هناك من يقول بعدم وجود هذه المرأة وحادثتها وأن ابن قيطون قد تخيلها، بحيث دارت أحداثها بالجنوب الشرقي الجزائري منطقة الزيبان ببسكرة وبالضبط بقرية سيدي خالد، وقد جاء في آخرها أنها نظمت بعد ثلاثة أيام بعد وفاة حيزية، ويبدو من القصيدة التي أخذت شهرة بالغة بين جمهور متلقي الشعر الشعبي أن شاعرنا كان متأثرا بها فأنشد هذه القصيدة.

ومن خلال معاينة القصيدة يتجلى لنا أنها منظومة على منوال القصائد العربية الكلاسيكية؛ إذ تبدأ بمخاطبة الأصدقاء ثم يتلو ذلك ذكر أيام السعادة، ووصف الحبيبة، والرجوع إلى الموضوع الرئيسي وهو الرثاء فيذكر الشاعر دفن حيزية، ويختم على القصيدة الالتجاء إلى الله وبالإيمان بالقضاء والقدر.

وتتواتر الأخبار والروايات أن الشاعر ابن قيطون نظم هذه القصيد بطلب من أحد أصدقائه يدعى سعيد، وكان هذا الأخير قد مني بوفاة امرأة عزيزة عليه اسمها حيزية فأراد أن يرثيها بهذه الباقة الرائعة تخليدا لذكراها السامقة في الوجود.

أجاد الشاعر في رسم تجربته الشعرية عن طريق الرموز الإيحائية الموظفة على مستوى القصيدة، التي تكتنز أبعادا ثقافية مستوحاة من الطبيعة ومن الحضارات المختلفة، والتي تحمل خصائص نفسية واجتماعية وتاريخية لأي أمة من الأمم، فاستطاع شاعرنا من خلال الأسلوب المؤثر الذي اعتمده نقل أحاسيس الحزن والأسى والفراق، وذلك بصياغة القصة في قالب تراجيدي بكائي مؤثر، مما جعل القصيدة تستميل عددا كبيرا من المتلقين المشيدين بها وبجمالياتها الفنية والأسلوبية.

**أولا- مفهوم الرمز:**

يعد الرمز أحد التقنيات الفنية التي أسرف الأدباء في استخدامها للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم بطريقة تلميحية لا تصريحية، كونه يعدّ وسيلة لتجسيد وتوصيل التجربة الفنية في صورة مكثفة ذات أبعاد إيحائية، هذه الرموز التي عرفها الإنسان منذ القدم واستخدمها في التواصل مع بني جنسه.

فالرمز من الأدوات التي اعتنى بها الشاعر الشعبي في وصف ورسم تجربته الشعرية ومكامن نفسه الخبيئة، ولهذا تعرض هذا المصطلح كغيره من المصطلحات إلى الاختلاف، والتضارب، والعمومية في فهمه.

وتعددت التعريفات اللغوية بين الباحثين القدماء والمحدثين لهذا المفهوم، فقد ذهب ابن منظور(ت711هـ- 1311م) في معجمه "لسان العرب" إلى أن الرمز في اللغة "تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت، إنما هو إشارة

بالشفتين، وقيل الرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم، والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين ورمز يرمز رمزا"[2].

الكريم، وبالتحديد في قصة سيدنا زكريا عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي اجْعَلْ لِي آيَة قَالَ آيَتُكَ أَلاَ تُكَلِمَ النَاسَ ثَلاَثَة أَيَام إِلاَ رَمْزَا ﴾[3].

فيما يرى معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب أن الرمز هو "كل ما يحل محل شيء آخر في الدلالة عليه لا بطريق المطابقة التامة، وإنما بالإيحاء أو بوجود علاقة عرضية أو متعارف عليها، وعادة ما يكون بهذا المعنى ملموسا يحل محل المجرد"[4].

يتضح من التعريفات اللغوية السابقة الذكر أن الرمز يقصد به الإشارة أو الإيماء إلى الشيء بغية التصريح به من غير الإبانة باللفظ المراد الإفصاح عنه.

أما من الناحية الاصطلاحية فأرسطو (Aristote) يعتبر من أقدم الفلاسفة الذين تناولوا الرمز فيذهب إلى وصفه "بالكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة"(5)، فتحديد أرسطو للرمز لا يخرج عن نطاق الإشارة؛ إذ أن الأصوات رموز لحالات النفس أي إشارة لها وعند كتابتها تبقى كذلك إشارة لهذه الأصوات المنطوقة.

فالرمز هو أداة تستخدم في التواصل والتفاهم يقصد منها الإشارة إلى شيء ما أو شخص ما أو مجموعة أو فكرة ما، وقد يكون الرمز من صورة تقدم لنا فكرة حول المرموز له مثل شكل الهلال الأحمر الذي يرمز إلى الجمعيات الاسعافية في الدول الإسلامية، وقد يستخدم حرف أبجدي للإشارة إلى أشياء أخرى كما في الرموز الكيميائية، ومن الوجهة الثقافية قد يكتسب بشكل ما أو لون ما أو حركة ما قيمة إضافة إلى قيمته الأصلية فيصبح رمزا لما هو خارجه.

فيما ذهب قدامى بن جعفر (ت337هـ-948م) إلى أن الرمز"هو أخفى من الكلام، وأصله الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم "[6]، ويتفق هذا التعريف مع ما ذهب إليه ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) في كتابه "العمدة" بقوله: "وأصل الرمز الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم، ثم استعمل حتى صار الإشارة، وقال الفراء الرمز بالشفتين"[7].

فالرمز يرتبط في التراث العربي بلغة التلميح والإيماء وبعبارات قليلة مكثفة الدلالة، قوية التأثير والإحالة إلى المرموز له، فهو بمثابة مثير يستدعي لنفسه الاستجابة نفسها التي يستدعيها آخر عند حضوره.

أما من الناحية النفسية فرأى سيغموند فرويد(Sigmund Freud) أن "الرمز نتاج الخيال اللاشعوري"[8]، فليس للرمز قيمة إلا بمدى دلالته على الرغبات المكبوتة في اللاشعور نتيجة الرقابة الاجتماعية الأخلاقية.

وعلى يد كارل يونغ (Carl Gustav Jung)تأخذ النظرة النفسية للرمز أقوى صورها وأقرب صيغها إلى المجال الأدبي، فالرمز يستمد في نظره من الشعور واللاشعور ممتزجين، فهو يرفض أساسا أن يكون الرمز قاصرا كما ادعى فرويد على منابع اللاشعور، كما يفرق بين الرمز والإشارة، ذلك أن الإشارة تعبير عن شيء معروف ومعالمه محددة في وضوح، إذ أن الرمز أفضل طريقة للإفضاء بما لا يمكن التعبير عنه، وهو معين لا ينضب للغموض والإيحاء بل والتناقض كذلك[9].

ومع ذلك فإن الرمز يستمد قيمته أو معناه من الناس الذين يستخدمونه، أي أن المجتمع هو الذي يضفي على الرمز معناه، وليست الثقافة في محصلتها سوى نسق معقد من الرموز المختلفة كما أنها أساس كل تنظيمات الإنسان وتواصله ومؤسساته، ومن هنا وصف الشاعر الفرنسي شارل بودلير(Charles Baudelaire) العالم بأنه "غابة من الرموز"[10].

بوجه عام الرمز في لغة العرب هو الإشارة، فالرمزية أدت بالإنسان إلى أن يخلق اللغة والثقافة وفتحت له أبعادا ثقافية جديدة.

**ثانيا- الأبعاد الثقافية للرموز الموظفة في قصيدة حيزية لابن قيطون:**

لقد تعددت الرموز التي وظفها الشاعر الشعبي في رسم تجربته الشعرية، ولاسيما أن الرمز يؤدي دورا واضحا ومهما في بناء كثير من القصائد لقدرته الإيحائية، ولأبعاده الدلالية التي تعمل على استثارة المتلقي لاستكناه خفاياه واستمالته من أجل التأثير فيه، ولهذا فقد تعددت الرموز الدالة على المرأة في شعر ابن قيطون حتى أصبحت ملكية عامة للشاعر الشعبي الذي عمل على توظيفها بأشكال وتراكيب مختلفة، والتي استحضرها في رثاءه لحيزية الذاودية صاحبة القصة المشهورة.

ومن أهم هذه الصور التي اكتسبت صفة الرمز وصف الشاعر للمرأة حيزية وصفا حسيا متكاملا، فقد تناول كل عضو من أعضائها حيث توسم بالجمال والتفرد، ويربط كل عضو من أعضائها بصورة معينة مستمدة من البيئة الطبيعية ومن الثقافات المختلفة، حتى تتمثل المرأة أمامنا أنموذجا من نماذج الجمال في عرف الشاعر، وفي هذا يقول شاعرنا ابن قيطون:[11]

طـــــلَقِتْ مَمْشُـــــوطْ طـــــاَحْ بَـــــــارْوَايِحْ كِفَـــــــاحْ
حَاجِـــــــبْ فُـــــــوقْ لَمَـــــاحْ نُـــــــونِنْ بْرَيَـــــــا
عَيْنِيـــــكْ فَـــــرْدْ رْصَـــــاصْ حَرْبِـــــي فِـــــي قِرْطَـــــاسْ
سُـــــــــورِي قْيَـــــــــاسْ فِـــــي يَـــــدِينْ الحَرْبِيـــــا

فالشاعر يتماهى في وصف مفاتن هذه المرأة فهو يعلي من قيمتها، ويبرز فوقيتها ونسق استعلائها من خلال جمالها الفاتن الذي لا تمتلكه امرأة أخرى، فقد تفردت بين أقرانها في زمانها بهذه الجماليات الخلقية التي ينقلها لنا الشاعر برمزية وشعرية.

هذه الرموز التي يوظفها الشاعر أصبحت بمثابة صور تشخيصية يتبعها الشعراء في وصف مختلف تجاربهم الشعرية، لما لها من مرجعيات دينية وأسطورية، ورموز لها مرجعيات اجتماعية وحضارية متجذرة في ذاكرة اللاوعي الجماعي. ولهذا فقد استلهم الشاعر هذه الرموز الإيحائية وراح يوظفها في قصيدته بروح جمالية وبأسلوب فني راق ينم عن مدى قدرة الشاعر في استلهام مختلف التعابير، فابن قيطون استعمل عدّة رموز في رثاء حيزية منها الشمس والقمر والغزال والعيون التي كالبندقية، وصورة الحاجب كالنون والنخلة، هذه الرموز التي تستكنه أبعادا ثقافية.

وظف الشاعر ابن قيطون رموزا عديدة في قصيدته حيزية؛ إذ رمز إلى المرأة حيزية بالشمس التي استوت في وقت الضحى وبداية شروق الشمس وإرسال أشعتها الذهبية، فتنير المكان وتسطع، أي يشبه رحيلها بالشمس التي سطعت صباحا وقت الضحى ثم غربت سريعا، فيقول في ديوانه:[12]

الشَـــمْسْ اللِـــي ضَـــوَاتْ طَلْعِـــتْ وِتْمَسَـــاتْ
خَسْـــفِتْ بَعْـــدِنْ اسْـــتْوَاتْ وَقْـــت الضَـــحْوِيَة

فالمرأة والشمس تعدان رمزا للخصوبة والأمومة، وكما أن الشمس التي توزع خيراتها على الأرض بأشعتها الدافئة فتكون نورا وهاجا يسطع على الجميع، والشمس كانت في كل مكان تقريبا

كمجسدة للمقدس ومعبودة كإله في الحضارات القديمة أو على الأقل معبرة كرمز لألوهة هامة هي جزء من مجمع الآلهة[13].

فالعرب في الجاهلية في زمانهم البعيد وبيئتهم القاحلة التي تراحبت أرجاؤها، كان لابد أن يستجيبوا لسليقتهم التي تدفعهم إلى طلب الربوبية، فعبدوا الشمس كإله لأنهم رأوا فيها قوة قاهرة؛ لأنها تنير دنياهم وتبعث الدفء في أجسادهم، ولعل هذا كل ما أدركوه منها وبعد طول تأمل انعقدت نيتهم على أن يتخذوا لها صنما بيده جوهرة في لون النار، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا لها صورة قريبة الشبه ولو إلى حد أن تبدو لهم ولا تغيب عن أعينهم[14].

أما الفرس ومن بينهم الآريين فحكموا بأن الشمس شأنها شأن الأم الحنون التي تحن على ولدها، لأنها تبعث النور والدفء فكأنها تشبه الأم بالتمام في هذا من شأنها[15].

كما أن للشمس رمزية جنائزية في أوقيانوسيا أنها موصلة الأرواح، فالأموات هنا يحملون بزوارق شمسية ففي مصر القديمة كان للشمس جانب مظلم يسفرها في قارب تحت الأرض حيث كان الفرعون الميت يرافقها ليعاود تولده معها[16].

ففي الكثير من المناطق الجزائرية نجد أن الأطفال الصغار إذا وقع لهم سن رموه في عين الشمس، فيقولون: "هَاكِي يَا شَمْسْ سِنِةْ الحِمَارْ وَأَعْطِينِي سِنِةْ الغَزَالْ"، وهذه العادات أو الممارسات مازالت تمارس إلى يومنا هذا في أغلب المجتمعات العربية.

فالشمس اعتبرت مصدرا للضياء لشدة نورها وحرها، ولهذا فقد أجاد الشاعر الشعبي في رسم تجربته الفنية بتوظيفه الجيد للشمس كرمز لهذه المرأة.

ثم يشبه شاعرنا بن قيطون خدّ حيزية بالقمر في ليلة طلوع البدر ووضوحه، واي قمر فهو قمر رمضان الكريم الذي توهج نورا وضياء معلنا حلول الشهر الفضيل، جميل في طلعته، خير في طلته، رحمة في وقته، فحيزية تختزل رموزه عند شاعر الذي يقول:[17]

القَمَـــــرْ اللِـــــي بَـــــانْ شَعْشَـــعْ فِـــي رَمَضَـــانْ
جَـــــــاهْ المِيسَـــــــانْ* طَالِـــــبْ وَدَاعْ الـــــدُنْيَا

رسم الشاعر لنا لوحة فنية بأبعادها الجمالية، فشبه جمال خدّ حيزية بالقمر المشعشع الذي يظهر في رمضان كل سنة، ويغيب عن نهاية الشهر، فنجد نوعا من التقابل بين هاتين الصورتين، صورة وفاة حيزية ووداعها للدنيا التي عاشت لفترة ثم توفيت وصورة هلال رمضان الذي يأتي لمدة شهر ثم يغيب، فلقاؤه يكون بشوق وحب وفراقه يكون بحسرة وألم.

ثم ينتقل شاعرنا للوقوف على حادثة وفاة حيزية التي أحدثت جزعا كبيرا في نفسه، وكانت هي الدافع لنظم القصيدة بشكل مباشر، فيقول:[18]

دَارُوهَـــــا فِـــي القْبَـــرْ وِالشَّـــاشْ مْعَجِـــرْ
تِضْـــوِي ضـــَيْ القَمَـــرْ لَيْلِـــةْ عُشْـــرِيَة

فحيزية رغم وضعها في القبر إلا أن ضياءها يشبه ضوء القمر وبريقه الوهاج في سواد الليل وشدة ظلمته، بالرغم من تغطيته بالشاش لكنه يخترقه ويسطع مضيئا للناظرين.

يوظف ابن قيطون رمز القمر لأنه كوكب إيقاعات الحياة، فهو يولد وينمو ويتناقص ويموت خلال ثلاثة أيام ثم يعاود الولادة،رمزيته تمتد لكل ما يسيطر عليه أو يبدو أنه مسيطر عليه (المياه، المطر، النبات، الخصوبة )، ويلعب القمر دورا كبيرا في هطول الأمطار في نظر الفلاحين، ويستند هؤلاء على المظاهرة القمرية ليقروا البدء بهذه الأعمال الزراعية[19].

فكما عبدت الشمس في العصر الجاهلي، رأوا كذلك بأن القمر حقيقا بالعبادة فاتخذوا له صنما على شكل عجل وبيده جوهرة، وكانوا يصومون له أياما من كل شهر، ولعل صيامهم في تلك الأيام من الشهر بسبب أنه يظهر في كل شهر، وبذلك اختلفت طقوس عبادته عن الشمس التي تظهر في كل يوم، كما أنهم كانوا يقدمون عليه فرحين مستبشرين وبيدهم الأطعمة والأشربة، كما رقصوا بين يديه وغنوا[20].

إن القمر يفسر الدور الذي يلعبه في الحفلات التكريسية للمجتمعات البدائية، وفي العديد من الثقافات أن القمر ينسج وهو تحت شكل ألوهة، وفي الشرق القديم اعتقد الكثيرون أن القمر كان محل إقامة الموتى والقمر يرمز في آن واحد للموت والخصب، للنور والظلمة بواسطة وجهه كبدر كامل وقمر جديد[21].

فمن المعلوم أن الشعراء على اختلاف تجاربهم الشعرية يوظفون القمر في أشعارهم، لذلك نجدهم دائما يشبهون الوجه الجميل بالقمر الذي يقترن دائما بالمرأة في اتصال ودوام.

كما يستعين ابن قيطون برمز حيواني في نقله لصورة جمال حيزية للمتلقي والسعي لتصويرها شاخصة أمامه، متمثلا في الغزال الذي اكتسب بعد ثقافيا إيحائيا في ثنايا أبيات القصيدة، فالغزالة توصف في الأغلب للأشخاص الذين يوسمون ويتفردون بالجمال الباهر الذي يخطف الأنظار ويأسرها، فيقول:[22]

نْصَـــبِح فِـــي الغْـــزَالْ نْصِـــرشْ لِلْفَـــالْ
كِـي اللِـي سَـــاعِي المَـــالْ وِكْنُـــوزْ الـــدِنْيَا

فالغزالة تشترك مع المرأة في الخصوبة والإنتاجية التي تعطي استمرارية للوجود، على أنها من "المهاة أو الغزالة وتشترك مع المرأة، التأنيث والأمومة والرأم، وبالتالي في معنى الخصوبة"[23].

لذا نجد ابن قيطون قد نوع وعدد في توظيف وتطويع الرموز الدالة على حيزية لوصف جمالها ورسم أنوثتها وإعادة تشكيلها شعريا، فيصل معه المتلقي إلى الشعور بالجمال، الذي لا يضاهيها مثيل.

وينتقل شاعرنا إلى وصف أحد مفاتن جسد حيزية وهو الخد، مستعينا بأدواته الفنية ألا وهو الرمز المكثف الدال على الجمال والدلال؛ رامزا للخدّ بالورد قائلا:[24]

خَـــــدِكْ وَرْدْ صْـــــبَاحْ وِقْرُنْفِـــلْ وَضَـــاحْ
وِالـــــدَمْ عْلِيـــــهْ سَـــــاحْ مِثْـــلْ الضَـــوَايَه

يصف شاعرنا خد حيزية بورد الصباح المتفتح حديثا فتكون صورته جميلة متلألئة، وهي صورة معروفة في أذهان العامة التي تقطف الورد صباحا حيث يكون يافعا قوي الرائحة ناصع الألوان، قد قصد شاعرنا رمز الورد؛ لأنه معروف في الثقافة الشعبية بأنه رمز للصداقة والمحبة والمودة[25].

وقد حدد رنييه لويس(René Louis) رمزية الوردة بدقة عندما قال أنها "الرمز الجوهري والدائم الذي يسود ويشرط كل الرموز الأخرى وتدل الوردة على الفتاة الشابة"[26]، فإن رمز الوردة يحاذي بشكل واسع نطاق الفتاة الشابة والمرأة، فقد كتب أن الوردة توجد متصلة بولادة الكائن البشري لموته، ولأفكار التجدد أو إعادة لتوالد الروحين "فعندما كان الرومان يحتفلون في شهر آيار بأعياد الزهور كانوا يضعون على القبور ورودا مقطوعة، ويقيمون لأرواح الموتى أطعمة من الورود"[27]، وفي العصور الرومانية القديمة كانت الورود رمزا للخصب، فالوردة في الواقع كانت رمزا للصمت والرصانة في العصور القديمة، وفي الرمزية المسيحية تدعى العذراء مريم "الوردة الروحية"

كما يرمز ابن قيطون لبدنها بالقطيفة ذات الملمس الناعم والرطب ويرمز لبياض بدنها بالقطن والكتان لشدة بياضها، فيقول:[28]

بَدْنِـــــــكْ كَاغِطْيْبَـــــــانْ القُطِـــــنْ وِالكَتـــــاَنْ
ولاَرَهـــــــــدْانْ طـــــــاَحْ لَيْلَـــــــةْ ظَلْمِيَـــــــة

فالقطيفة تعني في الحضارة الإغريقية ما لا يذبل أبدا، وهي تعتبر رمزا للخلود، والقطن رمز الوفرة أما الكتان هو الثياب من الكتان الأبيض في التصوير المصري وحسب العالم بالآثار المصرية رمز الطهارة وهذا ما يوجد في بلدان أخرى[29].

فالشاعر ابن قيطون يوظف هذا الرمز الحي المشع بالدلالات الدينية والتاريخية، التي تضفي عليه حياة جديدة وتعطيه أبعادا إيحائية تتوافق وطبيعة التجربة التي يعبر عنها، ولهذا يرمز الشاعر إلى حيزية، فيشبه جيدها بالجمار قلب النخلة ومكان الخصوبة فيها والمتميز بشدة البياض،فيقول:[30]

شُـــــــوفْ الرَقْبَـــــــة خْيَـــــــارْ مِـــنْ طَلْعَـــة جْمَـــارْ
جُعْبِـــــــــــــةْ بـــــــــــــلاَزْ وِالعْوَاقـــــدْ ذَهْبِيَـــــة

ثم يشبهها بالنخلة الجبارة بين السدود وسواقيها حية لم تدفن وإنما غرست كالنخلة الشامخة لتحيا، ولتبقى ذكراها سامقة على مدى الوجود، فيقول:[31]

دَارُوهَـــــا فِـــــي اللْحُـــــودْ الـــــــزِينْ المَقـــــــدْودْ
جَبَـــــارَة بِـــــينْ سْـــــدُودْ وِسْـــــــوَاقِي حَيَـــــة

فحيزية على الرغم من أنها وضعت في القبر إلا أن قيمتها حية في نفسه وذكراها محفورة في قلبه، فهي عالية علو الجبارة النخلة الصغيرة العمر، بالإضافة إلى وصفها (بالشعوبة) أي النخلة التي نبتت من تلقاء نفسها وتعتمد في حياتها على نفسها وجهدها، ولكن اشتد عليها الريح المتمثلة في المرض، فاقتلعها من جذورها وهو مشهد الموت، ليربطها ابن قيطون بالمسيح عيسى عليه السلام الذي ولد تحت هذه النخلة الكريمة،فيقول:[32]

بِنْـــــتْ احْمِيـــــده تَبَـــــانْ كِضـــــَيْ الوَمَـــــانْ
نَخْلـــــــــةْ بُسْتـــــــــاَنْ غِـــي وَحْـــدْهَا شِعْوِيـــة
ازْنَـــــدْ عَنْهَـــــا الـــــرِيحْ قَلِعْهَـــــا فِـــي المِـــيحْ
مَـــــا نِحْسِـــــبْهَا تْطِـــــيحْ دَايِـــــمْ مِحْضِـــــيَة

وَاثْرِيـــــــــــتْ المْلـــــــــــيحْ دَارِلْهـــــــــَا تَسْـــــــــرِيحْ
حَرِفْهَـــــــــــا لِلْمَسِـــــــــــيحْ رَبِـــــــــــــــــــيمُولَايَا

لقد وظفت النخلة في الشعر العربي كثيرا للدلالات على الجمال والصفاء، وكثيرا ما ترمز للمرأة الولود الخيرة على من حولها، واستعان بها الشعراء للتعبير عن غربتهم وأوطانهم، حيث يقول عبد الرحمان الداخل الملقب بصقر قريش (731-788م)معبرا عن حالته النفسية:[33]

تَبَـــدَتْ لَنَـــا وَسَـــطَ الرَصَـــافَةِ نَخْلَـــة فَقُلْـتُ شَـبِيه بِـالتَغَرُبِ وَالنَـوَى
نَشَـــأْتِ بِـــأَرْضٍ أَنْـــتِ فِيهَـــا غَرِيبَـــة تَنَـأْتِ بِـأَرْضِ الغَـرْبِ عَـنْ بَلَـدِ

فالنخلة كما هو معروف رمز قديم يدل على الإنتاج والوفرة، وقيمة النخيل في الوسط الشعبي ليست نابغة من فراغ، وإنما لها خلفية دينية وجذور تاريخية قديمة، هذه النخلة الشجرة الكريمة التي قال عنها النبي ﷺ "أَكْرِمُوا عَمَّتُكُمْ النَخْلَة فَإِنَهَا خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ آدِمْ وَلَيْسَ مِنَ الشَجَرِ أَكْرَمْ عَلَى اللهِ مِنْ شَجَرَةٍ وُلِدَتْ تَحْتَهَا مَرْيَمْ بِنْتُ عُمْرَانْ فَأَطْعِمُوا نِسَائَكُمْ الوِلْدَ الرَطِبْ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَطِبًا فَتَمْر"[34].

وقال القزويني "إِنَمَا سَمَاهَا عَمَاتُنَا لِأَنَهَا خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينَةِ آدِمْ"[35]، ففي القرآن الكريم ورد ذكر النخيل عدة مرات في أكثر من سورة منها سورة البقرة، سورة الأنعام، سورة النحل، وذكر أيضا في سورة مريم عندما استطلعت العذراء مريم يوم أن جاءها المخاض تحت جذع النخلة، فقالت: ﴿ يَا لَيْتَنِي مُتُ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُكِ سَرِيًا وَهزِي إِلَيكِ بِجِذْعِ النَخْلَةِ تَسَاقَطَ عَلَيْكِ رَطِبا جَنِيا ﴾[36].

فالنخلة تشبه الإنسان منها الذكر والأنثى ولاسيما المرأة، بالإضافة إلى كونها ترمز إلى الخصوبة، فإنها ترمز أيضا إلى الأمومة والعطاء فهي التي أعطت مريم الأكل، وتفيأت تحتها الظل حين لجأت إليها. كما أن للتمر في حياة الإنسان فائدة فهو غذاء، ودواء حيث كان من أفضل الأطعمة التي وصفها الرسول ﷺ وبين كثير من فوائده "إن التمر يذهب الداء ولا داء فيه، وإنه من الجنة وفيه شفاء".

كما تتضح رمزية النخلة في المستوى الثقافي والأنثربولوجي في العديد من الصور فهي رمز الحياة، ومما زاد عن قيمة هذا الرمز أن النخلة كانت في القديم من الأشجار المقدسة فقد وحد الفينيقيون بين النخلة التي اعتبرها الساميون شجرة الحياة في جنة عدن، وبين آلهة الخصب عشتروت، كما كانت النخلة هي الشجرة المقدسة عند الكاهنة والشاعرة العبرية دبورة، وكذلك من

التمر جاء اسم الإله تامور الذي عثر على آثاره في جزر البحر المتوسط التي استعمرها الفينيقيون[37].

كما أنها كانت مقدسة عند المصريين والجزيرة العربية ونجد لها حضورا رمزيا قويا في الشعائر والطقوس الجنائزية لارتباطها بالموت والانبعاث قديما وحديثا، فإن وضع أغصان خضراء وأسعف وجريد النخيل هي من المعتقدات القديمة التي يعتقد أنها ترطب جو القبر الموحش والجاف، ونحن نعلم أن رمزية اللون الأخضر رمز للخصب والحياة والربيع، كما أنها إحدى التماثيل المألوفة لشجرة الحياة في الشرق، ولقد كانت بنوع ما شعارا وطنيا عند الفنيقيين وتحدد موضوع النخيل طويلا في قائمة الزينة الفينيقية، وكانت عند الرومان تحمل أثناء المواكب الاحتفالية للانتصارات فهي رمز للنصر العسكري.[38]

كما يوظف ابن قيطون رمزا حيوانيا أخر في وصفه لحيزية ألا وهو الفرس فيقول:[39]

عَزُونِـــــي يَـــــا حْبَـــــابْ فِيهَـــا فَـــرْس ذْيَـــابْ
مَـــــا رِكْبُوهـــــَا نْسَـــــابْ مِـــــنْ غِيـــــرْ آنَـــــايَا

عندما نعود على إلى العصور القديمة نجد للفرس مكانة خاصة في المجتمع البدوي العربي، حيث تعتمد عليه حياتهم وعليه يحدد بقاؤهم واستمرار وجودهم، يقول ابن رشيق: " فقد كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصُنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج"[40].

بالإضافة إلى ما تقر به نصوص القران الكريم بمكانة وأهمية الفرس بين الأنعام التي خلقها الله عز وجل قال الله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَىَ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[41]، فهي تشكل دعامة الإنسان في حله وترحاله، فكانت خير معين له في تقريب المسافات التي يجتازها، فنجد ابن قيطون يشبه حيزية بفرس ذياب البطل الهلالي، فقد عرف ذياب كما هو معروف بالبطولة والشجاعة والفروسية في السيرة الهلالية الشعبية فكان في صورة بطل مقدام لا يعرف الخوف طريقه.

فالشاعر ابن قيطون استخدم الرمز بشكل متواتر، ونوع بين هذه الرموز منها الديني والأسطوري والاجتماعي والثقافي، وهذه بمجملها تشكل الثقافة الغالبة على مضمون القصيدة، ولعل الطبيعة البدوية التي كانت مسرحا للأحداث التي عاشها، ساعدت الشاعر في بلورة تجربته

الشعرية وفق قالب فني متميز، يسرد فيه الشاعر المأساة التي عصفت به وجعلته يعيش معاناة أبدية جراء رحيل هذه المرأة بعبارات تبعث على الحزن، وفي الوقت نفسه تعلي من قيمتها ومكانتها المتجذرة في الأعماق، وهذا ما يؤدي إلى استمالة المتلقي والتأثير فيه بطريقة لاشعورية.

لقد كانت الطبيعة ملهمة الشاعر التي فتحت له أحضانها ليعبر عما تختلجه ذاته الإنسانية من مكنونات عميقة ومستترة، أراد الشاعر أن يخرجها للحياة في أبهى حلة فنية، واستطاع من خلالها أن يبدع هذه القصيدة في جو مشحون بالرموز والإيحاءات التي تفضي إلى اتساع خياله ومقدرته الإبداعية.

**الخاتمة:**

إن القراءة الثقافية للرموز الموظفة على مستوى قصيدة حيزية للشاعر ابن قيطون تفضي إلى جملة من النتائج المستخلصة من هذه الدراسة من أهمها:

1-تشكل قصيدة حيزية موروثا شعريا أصيلا، وهذا ما جعلها تحظى باستجابة جماهيرية، نظرا لما يكتنزه هذا النص الشعري من ثقافات مستوحاة من الطبيعة البدوية، التي تفرض على الشاعر استلهام مختلف الصور والتعابير، وهذا ما جعل القصة في قالب فني متميز بحسه الجمالي.

2-ألهمت الطبيعة شاعرنا وفتحت له أحضانها ليعبر عما تختلجه ذاته الإنسانية من مكنونات عميقة ومستترة، أراد من خلالها أن يبث لواعج الحزن والفراق، وذلك بجعل القصيدة مشحونة برموز وإيحاءات ذات قوة تأثيرية والتي تفضي إلى الخيال والمقدرة الإبداعية التي يمتلكها الشاعر.

3-الأسلوب الفني المثير الذي وظفه الشاعر لرسم تجربته الفنية بأبعادها الثقافية، فقد اعتمد على أنماط تعبيرية في وصف جمال حيزية حية بين أهلها، ومتوفية في قبرها،فقد اقترب وصفه إلى نحت تمثال للجمال.

4-نوع وعدد الشاعر من الرموز الموظفة لوصف حيزية من رموز طبيعية وحيوانية مستوحاة من البيئة البدوية، ورموز دينية مستمدة من القرآن الكريم، بالإضافة إلى الرموز الأسطورية التي مرجعها الحضارات الإنسانية القديمة.

**الهوامش:**

1-الشاعر محمد بن قيطون من فحول الشعر الشعبي الجزائري ولد عام 1843.في مدينة سيدي خالد بالزيبان بولاية بسكرة، حفظ القرآن صغيرا ودرس علوم الدين واللغة العربية في الزاوية المجاورة لبيته وهي زاوية سيدي علي الجروني، المشهورة والمعروفة بسيدي خالد، أبدع في الشعر وهو صغير وعرف بفصاحته وقوة حجته، توفي عام 1907. (ينظر: محمد بن قيطون، ديوان محمد بن قيطون، جمع وشرح: أحمد عاشور، دار الشروق للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، مقدمة الكتاب).

2-ابن منظور، لسان العرب، ترجمة عامر أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ج5، ص 417.

3-سورة آل عمران، الآية 41.

4-مجدي وهبة، كامل المهندس، المصطلحات في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 181.

5-محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، دط، 1977، ص36.

6-قدامة بن جعفر، نقد الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 1982، ص 61.

7-ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981، ج1، ص 306.

8 -محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص 37.

9 -المرجع نفسه، ص 37.

10 فليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، سوريا، ط1، 1996، ص 06.

11-محمد بن قيطون، ديوان محمد بن قيطون، جمع وشرح: أحمد عاشور، دار الشروق للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص 42.

12- الديوان، ص 53.

13 -فيليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ص 377.

14- حسين مجيب المصري، الأسطورة بين العرب والفرس والترك دراسة مقارنة، الدار الثقافية للنشر، مصر، دط،دت، ص 56.

15- المرجع نفسه، ص 133.

16 -فليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ص 378.

17-الديوان، ص 53.

18- الديوان، ص 49.

19- فليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ص 383.

20- حسين مجيب المصري، الأسطورة بين العرب والفرس والترك دراسة مقارنة، ص 57.

21- أكرم قانصو، التصوير الشعبي العربي، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1995،ص 93.

22- الديوان،ص 44.

23- محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، ط1، 1994، ج1، ص 18.

24- الديوان ص، 43.

25- أكرم قانصو، التصوير الشعبي العربي، ص 93.
26- فليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ص 303.
27- المرجع نفسه، ص 303.
28- الديوان، ص 43.
29- فليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ص 325.
30- الديوان، ص 43.
31- الديوان، ص 49.
32- الديوان، ص 47-46.
33- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1955، ص 430.
34-أبو جعفر محمد بن حماد العقيلي المكي، الضعفاء الكبير، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 430.
35- القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، القاهرة، دط،1980م-1401ه، ص 177.
36 سورة مريم: الآيتان من 23، 25.
37- أكرم قانصو، التصوير الشعبي العربي، ص 87.
38- فليب سيرنج، الرموز في الفن -الأديان - الحياة، ص 297.
39- الديوان، ص 56.
40- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص 10.
41- سورة الغاشية: الآية 17.

## قائمة المصادر والمراجع:

1-القرآن الكريم برواية ورش.
2-أبو جعفر محمد بن حماد العقيلي المكي، الضعفاء الكبير، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
3-أكرم قانصو، التصوير الشعبي العربي، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1995.
4-حسين مجيب المصري، الأسطورة بين العرب والفرس والترك دراسة مقارنة، الدار الثقافية للنشر، مصر، دط،دت.
5-ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل،ط 5،1981 .
6-ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1955.
7-فليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، سوريا، ط1، 1996.
8-قدامة بن جعفر، نقد الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 1982.

9-القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، القاهرة، دط،1980م-1401ه.

10-مجدي وهبة، كامل المهندس، المصطلحات في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984.

11-محمد بن قيطون، ديوان محمد بن قيطون، جمع وشرح: أحمد عاشور، دار الشروق للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009.

12-محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، ط1، 1994.

13-محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، دط، 1977.

14-ابن منظور، لسان العرب، ترجمة عامر أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002.